

الفصل الأول
ماهو توطين علم النفس؟

ماهو توطين علم النفس؟

مفهوم التوطين

عرفت كلمة "وطن" ومشتقاتها في قواميس اللغة العربية، مثلا، في "معجم المحيط" عرفت الكلمة وطن بالوطن وبالمكان يطن وطنا أقام به. وطن البلد توطينا اتخذه محلا ومسكنا يقيم به. ووطنه على الأمر موطنه وافقه. وأوطن بالوطن وبالمكان إيطانا أقام به. واتطن البلد اتطناً واستوطنه استيطاناً اتخذه وطنا (البستاني، 1987). وهناك عدة تعاريف مشابهة لمصطلح "وطني" في القواميس المعاصرة، مثلا، عرف المصطلح في قاموس النبراس بأنه أصيل، أصلي (شيء في تواجده في بلد أو منطقة أو قطر ما)، ومن أمثلته العادة، واللغة، والنبات، والحيوان، والمعدن - وبالتالي غير دخيل، قح، ووطني، متوطن منذ الأزل - أو مجازيا مزية في شخصية المرء مثل الكذب والذكاء الخ - وبالتالي كامن بشكل طبيعي مجبول عليه بالفطرة (لبادة، 1993): كما عرف المصطلح في عمومياته بنفس الكيفية في موسوعة أبو خطوة (1992)، وفي معجم الشهابي (1988) وفي معجم مصطلحات العلم والتكنولوجيا (دبس، 1983).

ومن التعاريف السابقة، يمكن أن نخلص بأن تعريف كلمة "وطني" في سياق الدراسة الحالية أنه يعني (1) وطني، أو محلي، أو أصلي، أو أهلي، أو كامن، أو بلدي، أو قح (2) إنه لم يجلب من الخارج أو غير دخيل، أو غير وافد (3) أنه أصيل النشأة والتطور بصورة فطرية أو طبيعية في مكان محدد (4) يخدم أساسا الأفراد والجماعات من السكان المحليين أو المواطنين (5) وتتفي هذه التعاريف الخمسة عملية الاستيراد والتصدير (الخليفة، 2000).

وبوسعنا الآن أن نميز بين استخدام مصطلحي "وطني" (indigenous) و"توطين" (indi-genization)، فالأول نستخدمه بمعنى محلي، أو أصلي، أو أهلي، بينما نستخدم الثاني في هذه الدراسة بمعنى تكييف أو تبيئة أو تأصيل. وكما يقول البستاني (1987) بخصوص الثاني وطن البلد توطينا اتخذه محلا ومسكنا يقيم به، وذلك يعني أنه ليس مواطنا أصيلا أو محليا، أو بلديا إنما هو وافد من منطقة أخرى. ويمكننا أن نعمم مسألة التوطين بالنسبة لعلم النفس المستورد أو المجلوب من الغرب، وخاصة من الولايات المتحدة، ومحاولة استزراعها في التربة العربية المحلية، وبلغة أدق، توطينه في العالم العربي، أي جعله مواطنا يمنح الجنسية أو الجواز العربي. وحسب هذا الفهم، فإن علم النفس الوطني، وليس علم النفس الموطن، هو عبارة عن نظام المعرفة النفسية المعاصرة، والممارسات المتأصلة في العالم العربي. ويشمل

ما هو توطين علم النفس

ذلك علم النفس الأعراق البشرية ، والفلكلور النفسي ، وعلم النفس الديني ، والعلاج التقليدي (الخليفة، 2001).

وبلغة أخرى، عندما نقول "وطني" لا نتحدث عن علم النفس الغربي ، مثلا ، علم النفس الصناعي الذي يستخدم في المؤسسات ، أو علم النفس التربوي الذي يستخدم في المدارس ، أو علم النفس العلاجي الذي يستخدم في العيادات النفسية ، أو علم النفس الحربي الذي يستخدم في المؤسسات العسكرية . ومن الانتقادات التي يمكن أن توجه لعلم النفس الوطني أنه لم يكوّن نظريات صارمة وكاملة لتفسير سلوك وتفكير الأفراد ، وعدم وجود أو تطوير مناهج أو تقنيات رفيعة المستوى للبحث العلمي . وقد يكون علم النفس الوطني منغلقا ، أو ساكنا ، أو جامدا لا يقبل التغيير التقني، وبذلك يصعب تعميمه خارج إطار الثقافة المحلية (الخليفة، 2000).

وعندما نتحدث عن التوطين فنحن نعني علم النفس الغربي ، أو الحديث ، أو الأوربي ، أو الأمريكي ، أو اليورو-أمريكي. وبصورة عامة ، نعني علم النفس المستورد من الخارج الذي نحتاج إلى نكيّفه ونوطنه في التربة المحلية. وربما تكون هناك مصطلحات أخرى تعبر عن مفهوم "التوطين" من كلمة "وطن" مثل "التبئية" من بيئة و"الازدراع" من زراعة، وربما "البستنة" من بستان، و"التعريب" من عرب، و"التأصيل" من أصالة، و"الأسلمة" من إسلام. وتهدف عملية "توطين" علم النفس إلى تطوير نظام نظري أو معرفي يتواءم مع الحقائق الاجتماعية والثقافية للأفراد والجماعات في المجتمع . وفي تقديري، ليست هناك إجابة كافية في علم النفس المستورد لوحده أو في علم النفس الوطني وحده، وليست هناك موضوعية أكثر في واحد دون الآخر. فهناك أهمية للتفاعل بين ما هو محلي وما هو مستورد، وتزاوج بين ما هو أصيل وما هو دخيل ، فإن عملية التفاعل والتزاوج هذه هي التي يمكن أن نتجاوز بها عملية القصور في كلا العلمين و أن تمهد الطريق لتطوير علم نفس عالمي أو أكثر استجابة للحساسية الثقافية للأفراد والجماعات في العالم العربي (Khaleefa, 1997), (1999)

إذا حاولنا بذات القدر أن نستعرض مفهوم "التوطين" في الكتابات الغربية (Adair & Loving, 1999, Adair, Puhana & Vohra, 1993) ربما يكون من المناسب البحث في القواميس الإنجليزية بذات كيفية البحث في القواميس العربية . فمثلا ، يرجع معنى "التوطين" (indigenization) في قاموس أكسفورد إلى الحياة النباتية أو الحياة الحيوانية في منطقة محددة. وهو الذي ينتج بصورة طبيعية في تلك المنطقة وينتمي بصورة طبيعية للتربة. ووفقا

لذلك المعنى يمكن أن نأخذ فلسفة التوطين من علم النبات بأن نستجلب نباتا من بيئة خارجية ونغرسه في البيئة المحلية في العالم العربي أو من علم الأحياء بأن نتبنى طفلا من بيئة خارجية وننشأه في البيئة المحلية. ويمكن تمديد المعنى "لعملية" وبهذا ينطبق معنى التوطين على تحويل عنصر من العناصر لجعله طبيعيا ومناسبا للإقليم وللتربة أو لمظاهر محددة في البيئة. وتبرز مشكلة التوطين عندما يكون هناك ازدراع أجنبي، الذي يجب تحويله أو تكيفه لكي يكون مناسبا أو طبيعيا للتربة، أو في المجال الاجتماعي-الثقافي. أما في سياق علم النفس، فيعنى التوطين عملية تحويل علم النفس العلمي الذي تم تربيته واستيراده من الغرب مثلا أمريكا لأخذ الشخصية المناسبة للنسق الاجتماعي-الثقافي للبيئة المستوردة. ويمكن رؤية التوطين في شكل "العملية" أكثر من "الإنتاج" وهناك طريق طويل نحو اقتطاف ثمار أو نتاج توطين علم النفس في البيئة المحلية. وعندما نقول "العملية" نعني مجرد نوايا علماء النفس العرب، ومن ثم الإحساس بالمشكلة ومن بعد التفكير بها وأخيرا التخطيط لإحداث التوطين، بينما يعني "الإنتاج" كيفية مخاطبة مشكلات العالم العربي ومواجهتها والمساهمة في التنمية المحلية (الخليفة، 2000، 2006).

مقاربات في مفهوم التوطين

وبوسعنا أن نقارب بين عملية توطين علم النفس المستورد من الغرب للعالم العربي واستزراع نبات من بيئة مغايرة في البيئة العربية. وتحتاج عملية نمو علم النفس كما يحتاج نمو النبات إلى بيئة مناسبة للنمو. ولا ينمو النبات إلا في ظروف بيئية معينة. وتحتوي البيئية النظرية على فلسفة المعرفة ونظرية المعرفة، لكنها أشمل منها. ويقصد بها البنية الحضارية والثقافية للمجتمع التي تساعد على نمو المعرفة وتطويرها. فالمفاهيم والنظريات... ليست رموزا بقدر ما هي انعكاس لثقافة المجتمع وبنائه الحضاري (عرايبي والهمالي، 1990). وليس من السهل استيراد العلم والتقانة وغرسهما في المجتمع كالجسم الغريب، بل يجب أن تتوافر تربة صالحة وبنية أساسية إرتكازية متماسكة البناء تتداخل فيها كل المعطيات والمقومات، قادرة على أن تتفاعل وتندمج عضويا مع المنظومات الأخرى القائمة على البيئة المحيطة، بما يضمن ديمومة الاستفادة من العلم والتقانة ونتائجها وتحقيق التوطين وبناء صرح علمي قويم (الرميحي، 1991). ومن ناحية تطويرية ونمائية، فإن علم النفس أشبه بالكائن الحي الذي يوجد في بيئة جديدة أو يستورد إليها، ففي هذه الحالة يجب عليه أن يتأقلم، أو يتعايش، أو يتكيف، وبمستوى أعلى ينسجم مع ظروف البيئة الجديدة أو أن يعمل كذلك على إيجاد بيئة أكثر ملائمة كي تساعده على النماء والارتقاء.

ما هو توطين علم النفس

وكي نقرب معنى "التوطن" للحياة النباتية يمكننا مراجعة الصورة الموجودة في مقدمة هذه الدراسة؛ إذ صُوِّرت في شهر أكتوبر 2003 بعد عودتي للسودان خلال فترة غياب دامت إحدى عشر سنة قضيتها ما بين بريطانيا والبحرين. وأخذت الصورة بالصافية بمدينة الخرطوم بحري بالسودان. وفي هذه الصورة تقوم ابنتي "كرمل" ، وتعني في اللغة العربية "ساق الشجرة" ، بسقاية هذه الساق ذي الشكل الشبيه بشعار علم النفس (Logo of psy- chology). وعموما تعتبر تربة المنطقة تربة زراعية ذات خصوبة عالية لأنها في الأساس كانت منطقة زراعية، فضلا عن أنها لا تبعد كثيرا عن ضفاف النيل . ويمكننا أن نتصور بأنه هذه الغرسة هي غرسة مستوردة من الخارج وعاشت في بيئة مختلفة عن البيئة المحلية. وعندما تم استزراعها أو غرسها في السودان احتاجت هذه الغرسة المستوردة إلى عناية خاصة في اختيار التربة المناسبة، والري الملائم، والسماط الطبيعي، والتهوية الجيدة: حتى تتكيف مع البيئة المحلية، وبلغة أكثر تحديدا تتوطن في البيئة المحلية.

ولتقريب معنى توطين علم النفس في اللغة العربية يمكننا هنا استخدام صيغ مختلفة من أسماء الدول العربية. وبعد استقلالها من الاستعمار خاصة الإنجليزي والفرنسي ظهرت الحاجة إلى تعريب الوظائف وإحلال العمالة الوظيفية مكان العمالة الأجنبية بالعمالة الوطنية، مثلا ، الدعوة لسودنتها في السودان، وجزارتها في الجزائر، وتونسيتها في تونس ولبننتها في لبنان. وفي دول الخليج، مثلا ، ظهرت في السنوات الأخيرة الحاجة إلى الاستغناء عن العمالة الأجنبية وإحلال العمالة الوطنية مكانها مثلا الدعوة لسعودة الوظائف في السعودية ، وبحرنتها في البحرين، وتكويتها في الكويت. كما استخدمت نفس الصيغة في كيفية التعامل مع ترجمة وتكييف مقاييس الذكاء، مثلا في المغرب استخدم عالم النفس المغربي أحرشاو (1994) صيغة "مغربة رائز وكسلر للذكاء"، وفي السودان استخدم الخليفة وطه وعشرية (1995) صيغة "سودنة" مقياس وكسلر للذكاء الراشدين. واستخدم الخليفة والمطوع (2002) صيغة "بحرنة" مقاييس الذكاء. وباختصار تقارب عملية تعريب الوظائف أو الاختبارات السيكولوجية عملية توطين علم النفس المستورد ليجابه قضايا التنمية المحلية، وذلك بمنحه الجواز العربي. بذات الكيفية التي منح بها علم النفس المستورد من ألمانيا وأمريكا الجواز الأمريكي.

وكي نقرب بصورة أخرى عملية التوطن لعلم النفس يمكن البحث في صيغ استخدام كلمة "التوطن" في المعارف الأخرى. مثلا تستخدم الكلمة في العلوم الإنسانية في عملية توطين النازحين أو اللاجئين في منطقة غير التي ولدوا وتربوا فيها. وتستخدم الكلمة في علم العمران